الفصل السابع

روسو الفيلسوف

---

١ ـ العقد الاجتماعى

قبل نشر « هلويز الجديدة » بشهرين كتب روسو إلى مسيو لينبس (١١ ديسمبر ١٧٦٠) يقول :

« لقد طلقت حرفة الكاتب إلى الأبد . وبقيت خطئية قديمة يجب التكفير عنها فى كتاب مطبوع ، وبعدها لن يسمع الجمهور منى أبدا . ولست أعرف حظاً أسعد من أن يكون الإنسان مجهولا إلا من أصدقائه .... ومنذ الآن سيكون نسخ الموسيقى شاغلى الوحيد [١] » .

ثم كتب ثانية فى ٢٥ يوليو ١٧٦١ :

« ظللت عاقلا إلى الأربعين . ثم تناولت القلم ، وهأنذا أضعه قبل أن أبلغ الخمسين ، وأنا العن فى كل يوم من أيام حياتى ذلك اليوم الذى دفعنى فيه غرورى الأحمق إلى تناوله ، والذى رأيت فيه سعادتى ، وراحتى ، وصحتى ، كلها تتطاير هباء دون أمل فى أستعادتها ثانية [٢] » .

أكان هذا منه تظاهرا ؟ ليس بالضبط . صحيح إنه فى ١٧٦٢ نشر كتابيه « فى العقد الاجتماعى » و « إميل » ، ولكنهما كانا قد اكتملا قبيل ١٧٦١ ، وكانا « الخطئية القديمة التى يجب التكفير عنها فى كتاب مطبوع » ، وصحيح إنه بعد ذلك كتب ردودا على رئيس أساقفة باريس ، وعلى مجمع الكنائس الجنيفى ، وعلى طلبات من كورسيكا وبولندة بأن يقترح عليهما دستورين ، ولكن هذه المؤلفات كانت مؤلفات مناسبات ، دعت إليها أحداث غير

متوقعة . وقد نشرت « الأعترافات » و « الحوارات » و « أحلام جوال منفرد » بعد موته . وهكذا التزم أساسا بتعهده الجديد . ولا عجب أن يشعر فى ١٧٦١ أنه قد أرهق ونضب ، لأنه كان قد ألف فى خمس سنوات ثلاثة أعمال كبرى ، كان كل منها حدثا فى تاريخ الأفكار .

ومنذ عام ١٧٤٣ يوم كان سكرتيرا للسفير الفرنسى فى البندقية ، هدته ملاحظته لحكومة البندقية بالقياس إلى الحكومتين الجنيفية والفرنسية إلى تخطيط رسالة هامة فى المؤسسات السياسية . وكان « المقالان » شرارتين بعثتهما تلك النار ، ولكنهما كانا محاولتين متعجلتين لإثارة الأنتباه بالمبالغة ، ولم تنصف واحدة منهما فكره المتطور . وراح خلال ذلك يدرس أفلاطون ، وجروتيوس ، ولوك ، وبوفندورف . ولم تكتمل قط الرائعة الأدبية التى حلم بها . فروسو لم يوهب الذهن المنظم ، والإرادة الصابرة ، والطبع الهادئ الذى يتطلبه مشروع كهذا يقتضيه الأستدلال العقلى لا الوجدان فقط ، وإخفاء العاطفة لا إعلانها ، وكان مثل هذا الإنكار للنفس فوق طاقته . لقد كان هجرانه للتأليف أعترافا منه بالهزيمة . ولكنه أعطى العالم عام ١٧٦٢ قطعة رائعة من مخططه فى ١٢٥ صفحة نشرت بأمستردام تحت عنوان « فى العقد الاجتماعى ، أو مبادىء القانون السياسى » .

وكلنا يعرف الصيحة الجريئة التى استهل بها الفصل الأول « ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال » وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة ، لأنه عليم بأن للمنطق سلطانا منوما قوياً ، وقد أصاب فى ضربه على هذه النغمة العالية ، لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله . وافترض روسو هنا — شأنه فى « المقالين » — وجود « حالة طبيعية » بدائية لم تكن فيها قوانين ، واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية ، واقترح بديلا عنها « ايجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضو فيه وعن متاعه ويحميهما بكل ما أوتى ذلك المجتمع من قوة مجموعه ، مجتمع يظل الإنسان فيه رغم اتحاده مع الجميع يطيع نفسه فقط ، ويبقى حراً كما كان من قبل ... تلك هى المعضلة الأساسية التى يقدم لها العقد الاجتماعى الحل [٣] » .

يقول روسو أن هناك عقدا اجتماعياً ، لا كتعهد من المحكومين باطاعة الحاكم ، كما جاء فى كتاب هويز (اللوياثان) « الوحش » ، بل كاتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم ؛ وحقوقهم ، وسلطاتهم لحاجات ورأى مجتمعهم ككل . وكل شخص يدخل ضمنا فى مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة . والسلطة العليا فى أى دولة لا تستقر فى أى حاكم — فرداً كان أو جماعة — بل فى « الإرادة العامة » للمجتمع ، وتلك السيادة لايمكن التخلى عنها أبدا وإن جاز تفويضها جزئيا إلى حين .

ولكن ما هذه « الإرادة العامة » ؟ أهى إرادة جميع المواطنين ؛ أم إرادة الأغلبية فقط ؟ ومن الذين يعتبرون مواطنين ؟ أنها ليست إرادة الجميع ، لأنها قد تناقض كثيرا من الإرادات الفردية . ولا هى دائماً إرادة الأغلبية الذين يعيشون (أو يصوتون) فى لحظة بعينها ، بل هى إرادة المجتمع باعتباره صاحب حياة ووافع مضافين إلى حيوات وإرادات الأعضاء الأفراد . (وروسو ، كمفكر واقعى من العصر الوسيط ، ينسب للجماعة مجتمعة ، أو للفكرة العامة ، واقعا بالإضافة إلى واقع أعضائها الأفراد . فالإرادة العامة أو « روح الجماعة » يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب ، بل الأموات أو الذين لم يولدوا بعد ، ومن ثم فالذى يعطيها طابعها ليس هو الإرادات الراهنة فحسب ، بل تاريخ الجماعة الماضى وأهدافها المستقبلة . وما أشبهها بأسرة عريقة تفكر فى نفسها على أنها واحدة على مر الأجيال ، وتكرم أسلافها ، وتحمى أخلاقها — (بمعنى أن أباً من الآباء قد يدفعه التزامه قبل حفدته الذين لم يولدوا بعد إلى مناقضة رغبات أبنائه الأحياء ، وأن سياسيا ما قد يشعر بأنه ماتزم بالتفكير لابلغة انتخاب واحد بل أجيال(*) كثيرة .) ومع ذلك فان (صوت الأغلبية ملزم دائما للباقين جميعاً[٤]) . ومن له حق التصويت ؟ كل مواطن[٥] . ومن المواطن ؟ واضح أنه ليس كل بالغ ذكر . وروسو غامض جدا فى هذه النقطة ، ولكنه يمتدح دالامبير لتفريقه بين

(*) العبارة المحتواة بين القوسين تفسير اجتهادى وليست واردة صراحة فى روسو .

« طبقات الناس الأربعة ... الذين يسكنون مدينتنا (جنيف) ، وطبقتان من هؤلاء فقط تؤلفان الشعب . ولم يفهم كاتب فرنسي آخر ... المعنى الحقيقي لكلمة المواطن [٦] .

يقول روسو أن القانون ، فى الحالة المثالية ، ينبغى أن يكون التعبير عن الإرادة العامة . فالإنسان بفطرته يغلب عليه الخير ، ولكن له غرائز يجب التحكم فيها ليصبح المجتمع أمراً ممكنا . وليس العقد الاجتماعى تمجيد « حالة الطبيعة » فروسو يتكلم لحظة كما يتكلم لوك أومونتسكيو لابل فولتير :

« ان الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية يتمخض عن تغير ملحوظ جداً فى الإنسان ، لأنه يحل القانون محل الغريزة فى سلوكه ، ويضفى على أفعاله ، الفضيلة التى كانت تعوزها من قبل . ومع أنه فى هذه الحالة (المدنية) يحرم نفسه من بعض المنافع التى تلقاها من الطبيعة . إلا أنه يكسب نظير ذلك منافع أخرى عظيمة جداً ؛ فقدراته تحفر حفراً شديداً وتطور تطويراً كبيراً ، وأفكاره توسع كثيراً وروحه كلها تسمو سموا عظيما . ولولا أن مساوىء حالته الجديدة كثيراً ما تهبط به إلى مستوى أدنى من ذلك الذى تركه ، لكان عليه أن يبارك على الدوام تلك اللحظة السعيدة التى نقلته من حالته الأولى إلى غير رجعه ، والتى جعلته كائنا ذكياً وإنسانا بدلا من أن يظل حيوانا غبياً عديم الخيال[٧] .

وهكذا نجد روسو (الذى تكلم يوما ما كما يتكلم فوضوى لا يفلسف كلامه تماما) يناصر بكليته قداسة القانون ، إذا عبر القانون عن الإرادة العامة . فإذا لم يتفق فرد ما كما يحدث فى حالات كثيرة — مع تلك الإرادة كما يعبر عنها فى القانون ، حق للدولة إكراهه على الخضوع [٨] . وليس هذا انتهاكا للحرية بل صيانة لها ، حتى للفرد المقاوم ، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد فى الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان ، والسرقة ، والاضطهاد ، وتشويه السمعة ، وعشرات الشرور الأخرى . ومن ثم فإن المجتمع بإكراهه الفرد على طاعة القانون إنما « يكرهه على أن يكون حراً » فى

الواقع [٩] . وهذه هى الحالة على الأخص فى الجمهوريات ، لأن « طاعة القانون الذى نضعه لأنفسنا هى الحرية » [١٠] .

والحكومة جهاز تنفيذى تفوض فيه الإرادة العامة مؤقتا بعض سلطاتها . وينبغي أن تكون فكرتنا عن الدولة لا على أنها الحكومة فقط ، بل الحكومة ، والمواطنون ، والإرادة العامة أو روح الجماعة . والدولة تكون جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى إعتبار الملكية جمهورية . أما إذا كانت الملكية مستبدة — أى إذا كان الملك يضع القوانين وينفذها — فليست هناك جمهورية أو دولة ، بل طاغية يحكم عبيدا . ومن ثم رفض روسو الانضمام إلى أولئك الفلاسفة الذين امتدحوا « الاستبداد المستنير » — استبداد فردريك الثانى أو كاترين الثانية سبيلا لدفع الحضارة والإصلاح قدما . وكان رأيه إن الشعوب التى تعيش فى أجـــواء قطبية أو مدارية قد تحتاج إلى الحكم المطلق حفاظا على الحياة والنظام ، [١١] أما فى المناطق المعتدلة فيحسن المزج بين الارستقراطية والديمقراطية . والارستقراطية الوراثية « اسوأ الحكومات قاطبة » ، والأرستقراطية الانتخابية أفضلها [١٢] ، أى أن أفضل حكومة هى تلك التى تضع القوانين وتنفذها فيها أقلية من الرجال ينتخبون دوريا لتفوقهم الفكرى والخلقى :

أما الديمقراطية بوصفها حكما مباشرا بواسطة الشعب كله فقد بدت لروسو مستحيلة .

« لو أخذنا هذا اللفظ بمعناه الدقيق لم نجد قط ديمقراطية حقيقية ، ولن توجد أبداً هذه الديمقراطية . فمما يناقض النظام الطبيعى أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة . ومما لا يمكن تصوره أن يظل الناس مجتمعين بصفة مستمرة ليتفرغوا للشئون العامة ، وواضح أنهم لايستطيعون إنشاء لجان لهذا الغرض دون تغيير فى شكل الحكومة » .

ثم كم من الظروف التى يصعب الجمع بينها تفترض لهذه الحكومة ؟

أولا دولة صغيرة جداً يمكن جمع الشعب فيها عاجلا ، ويمكن لكل مواطن فيها أن يعرف سائر المواطنين بسهولة ؛ ثانيا ، البساطة التامة فى العادات ، منعاً لتكاثر الأعمال وإثارة المشاكل الشائكة ، ثم قدر كبير من المساواة فى الرتب والثروات بدونه لا تستطيع المساواة فى الحقوق والسلطة البقاء طويلا ؛ وأخيراً قلة الترف أو انعدامه ، لأن الترف مفسدة للأغنياء والفقراء جميعاً — للأغنياء بالاقتناء ، وللفقراء بالاشتهاء . . وهذا هو ماحدا كاتباً شهيراً (مونتسكيو) إلى اعتبار الفضيلة المبدأ الأساسى للجمهوريات ، لأن هذه الظروف كلها لا يمكن توافرها بغير الفضيلة .. ولو كان هناك شعب من الآلهة لكانت حكومة ديمقراطية أما البشر فليست هذه الحكومة البالغة الكمال مما يناسبهم[١٣] .

وقد تغرى هذه الفقرات بسوء التفسير . فروسو يستخدم لفظ «الديمقراطية» بمعنى ندر أن ينسب له فى السياسة أو التاريخ ، وهو أنها حكومة تشرع فيها كل القوانين بواسطة الشعب كله المجتمع فى مجالس قومية . والواقع أن «الارستقراطية الانتخابية» التى فضلها هى مايجب أن نسميه الديمقراطية النيابية — أى الحكومة التى يتولاها موظفون يختارهم الشعب لما يفترض فيهم من صلاحية عليا . على أن روسو يرفض الديمقراطية النيابية على أساس أن الممثلين أو النواب سرعان مايشرعون لمصلحتهم لا للخير العام . « أن الشعب الإنجليزى يعتبر نفسه حراً ولكنه يخطىء بذلك خطأ فاحشا ؛ فهو حر فقط خلال انتخاب أعضاء البرلمان ؛ وما إن يتم انتخابهم حتى تسيطر العبودية على الشعب فلا يعود له وزن »[١٤] . فالممثلون يجب أن ينتخبوا ليشغلوا المناصب الإدارية والقضائية لا ليشرعوا ، ويجب أن تشرع جميع القوانين بواسطة الشعب فى جمعية عامة ، وأن يكون لتلك الجمعية سلطة إقالة الموظفين المنتخبين[١٥] . ومن ثم وجب أن تكون الدولة المثالية من الصغر بحيث تسمح لجميع المواطنين بالإجتماع مراراً كثيرة . « وكلما اتسعت الدولة تقلصت الحرية »[١٦] .

أكان روسو اشتراكيا ؟ إن «المقال» الثانى نسب جميع رذائل الحضارة إلى إقرار الملكية الخاصة ، ولكن حتى ذلك المقال رأى أن هذا النظام أعمق

جذورا فى البنيان الاجتماعى من أن يتيح القضاء عليه دون ثورة فوضوية مدمرة . « والعقد الاجتماعى » يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة ، فيجب أن تحتفظ الجماعة بكل الحقوق الأساسية ، ولها أن تستولى على الأملاك الخاصة لخير المجتمع ، ويجب أن تحدد أقصى مايسمح للأسرة الواحدة بتملكه (١٧) . ولها أن تؤمن على توريث الملكية ، ولكن إذا رأت الثورة تنحو إلى تركز ممزق فلها أن تستخدم ضرائب التركات لإعادة توزيع الثروة والتخفيف من عدم المساواة الإجتماعى والإقتصادى . « يجب أن يتجه التشريع دائماً إلى الحفاظ على المساواة بالضبط لأن قوة الأشياء تتجه دائماً إلى القضاء عليها (١٨) . ومن أهداف « العقد الإجتماعى » أن يصبح الأفراد الذين قد يكونون مختلفين قوة أو ذكاء متساوين فى الحقوق الإجتماعية والقانونية (١٩) » . ويجب أن تفرض الضرائب العالية على الكماليات . « ان الحالة الاجتماعية لاتقيد الناس إلا إذا ملك كل فرد شيئاً ولم يملك أحد فوق ما ينبغى (٢٠) » . ولم يورط روسو نفسه فى القول بالجماعية ، ولا خطرت بباله قط (دكتاتورية البروليتاريا) ، وكان يحتقر البروليتاريا الوليدة فى المدن ، واتفق مع فولتير على تسميتها (الرعاع أوحثالة المجتمع) (٢١) . وكان مثله الأعلى طبقة فلاحين تعيش مستقلة رخية الحال ، وطبقة وسطى فاضلة تتألف من أسر كأسرة فولمار فى « هلويز الجديدة » وسيتهمه بيير — جوزف برودون بتمجيد البورجوازية » (٢٢) »

ترى أى مكان للدين فى الدولة ؟ لقد شعر روسو أن دينا ما لاغنى عنه للفضيلة ، « ما قامت دولة قط دون أساس دينى » (٢٣) .

« ان الحكماء أن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلا من لغته لن يستطيعوا ايصال ما يريدون إلى أفهامهم . . . ولكى يمكن شعب ناشىء من ايثار الأصول السليمة للنظرية السياسية . . . يجب أن تصبح النتيجة سبباً : فالروح الاجتماعية التى ينبغى أن تخلقها هذه المؤسسات يجب أن تسود أساسها نفسه ، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب أن يصبحوه بالقانون . إذن فالمشرع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو للعقل

يجب أن يلجأ إلى سلطة من نوع مختلف ، قادرة على الكبح دون عنف. . هذا ما دعا آباء الأمم فى جميع العصور إلى الإلتجاء للتدخل الإلهى ، ونسبة حكمتهم هم لآلهتم ، حتى ، تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة كما تخضع لقوانين الطبيعة » . . دون عائق ، وتحتمل نير الخير العام عن طيب خاطر »[٢٤] .

ولن يتشبث روسو دائماً بهذا الرأى السياسى القديم فى الدين ، ولكنه فى « العقد الاجتماعى » جعل من الإيمان فوق الطبيعى أداة للدولة ، واعتبر القساوسة على أفضل تقدير ضربا من الشرطة السماوية . على أنه رفض اعتبار الكهنة الكاثوليك الرومان كذلك ، لأن كنيستها زعمت أنها فوق الدولة ، فهى إذن قوة مفسحة ، تقسم ولاء المواطن[٢٥] . وفضلا عن ذلك فإن المسيحى ، — كما زعم — إذا أخذ لاهوته مأخذ الجد ؛ يركز إهتمامه على الحياة الآخرة ، ولا يقيم وزنا يذكر لهذه الحياة الدنيا ، فهو إلى هذا الحد مواطن ضعيف . ومثل هذا المسيحى يكون جنديا وسطا ؛ قد يقاتل دفاعا عن وطنه ، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وأشراف مستمرين ، وهو لا يؤمن بشن الحرب دفاعا عن الدولة ؛ لأن له وطنا واحدا فقط — هو الكنيسة . والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعية الطيعة ؛ ومن ثم كانت روحها مواتية جدا للاستبداد بحيث أن الطغاة يرحبون بتعاونها . « أن المسيحين الحقيقين خلقوا ليكونوا عبيداً[٢٦] » . وهكذا أتفق ورسو مع ديدرو ، وأستبق جيون ؛ وكان فى تلك الفترة أشد عنفا فى عدائه للكاثوليكية من فولتير ؛ ومع ذلك شعر بأن دينا ما لا غنى عنه ؛ « دينا مدنيا » تصيغه الدولة وتفرضه فرضا على جميع سكانها . أما عن العقيدة :

« فأن عقائد الدين المدنى يجب أن تكون قليلة ؛ بسيطة ؛ دقيقة العبارة ؛ دون شروح أو تعليقات . فوجود إله قادر ؛ ذكى ؛ خير ؛ ذى بصيرة وتدبر ؛ ثم حياة آخرة ؛ وسعادة الأبرار ؛ وعقاب الأشرار ؛ وقداسة العقد الاجتماعى والقوانين ؛ تلك هى عقائد الدين الإيجابية[٢٧] ».

وهكذا إعترف روسو بعقائد المسيحية الأساسية ؛ على الأقل لأغراض

سياسية ؛ على حين رفض أخلاقياتها لغلوها فى المسالمة والدولية — على العكس تماماً ومما درج عليه الفلاسفة من الاحتفاظ بأخلاقيات المسيحية مع رفض لاهوتها . وقد سمح بأديان أخرى فى دولته الوهمية ؛ بشرط عدم تعارضها مع العقيدة الرسمية . وهو يتسامح مع الأديان « التى تتسامح مع غيرها » ؛ أما من يجسر على القول « بأنه لاخلاص خارج الكنيسة » فيجب طرده من الدولة ، إلا أن تكون الدولة هى الكنيسة ، والملك هو حبرها الأعظم[٢٨] . » ولا يسمح بانكار البنود الواردة فى ديانة الدولة .

« وإذا كانت الدولة لا تستطيع أكراه أحد على الإيمان بهذه البنود ، فإن فى إستطاعتها أن تنفيه ، لا لزندقته ، بل بوصفه كائنا أرستقراطيا ، عاجزا عن محبة القوانين والعدالة محبة صادقة ، وعن بذل حياته عند الحاجة فى سبيل الواجب . وإذا سلك إنسان — بعد إقراره بهذه العقائد علانية — مسلك من لا يؤمن بها ، كان عقابه الموت[٢٩] » .

وهذه الجملة الأخيرة هى أشهر الجمل فى « العقد الاجتماعى » بعد « ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال » وإذا أخذت بمنطوقها الحرفى كان معناها إعدام كل من يسلك مسلك من لا يؤمن بالله ، أو الجنة أو النار ، ولو طبقت على باريس ذلك الزمان لأنضبت تلك العاصمة من أهلها . ولعل حب روسو للعبارات المسرفة التى تهز القراء طوح به إلى أن يقول أكثر مما يعنى . ولعله تذكر مجمع أوجزنورج (١٥٥٥) الذى وافق فيه كل الأمراء الموقعين على قراراته على أن يكون لكل منهم الحق فى أن ينفى من أملاكه أى شخص لا يقبل مذهب الأمير . وفى قوانين جنيف إذا أخذت حرفيا (كما حدث فى حالة سرفيتوس) سابقة لوحشية روسو المفاجئة . وقد اعتبرت أثينا القديمة « رفض الأعتراف بالآلهة الرسميين » جريمة كبرى ، كما حدث فى نفى أناكساجوراس وقتل سقراط بالسم ، وكان هذا بالمثل القدر الذى بررت به روما الامبراطورية إضطهادها للمسيحيين ، وأخذاً برأى روسو هذا فى معاملة المجرمين يمكن أن يوصف الأمر باعتقاله بأنه من أفعال المحبة المسيحية .

أكان « العقد الاجتماعى » كتابا ثوريا ؟ لا ونعم . فهنا وهناك ، وسط مطالبة روسو بحكومة مسئولة أمام الإرادة العامة ، تهدىء ثائرته لحظات من الحذر ، كما فى قوله : « لا شىء يمكن أن يعدل خطر تغيير النظام العام غير الأخطار الكبرى ، ويجب إلا تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقا مالم تكن حياة الوطن فى خطر »(٣٠) . ومع أنه حمل الملكية الخاصة اللوم على كل الشرور تقريباً ، إلا أنه دعا إلى صيانتها لأنها ضرورة يدعو إليها ما آل إليه الإنسان من فساد لا صلاح له . وتساءل ألا تعيد طبيعة الإنسان ، بعد أن يقوم بثورة ، نظما وعبوديات قديمة تحت أسماء جديدة ؟ « إن قوما تعودوا الخضوع لسادة لن يدعوا السيادة تتوقف . . . فهم إذ يحسبون الاباحية حرية ، تسلمهم ثوراتهم إلى أيدى مضللين لا يزيدونهم إلا رسوفا فى إغلالهم(٣١) ».

ومع ذلك كان صوت روسو أكثر أصوات العهد ثورية . ففى هذا الكتاب كان خطابه موجها لكثرة الشعب ، وإن غض من شأن الجماهير ولم يثق بها فى غيره من كتبه . لقد كان يعلم أنه لامناص من عدم المساواة ، ولكنه أدانه بقوة وبلاغة . وأعلن فى غير لبس أو غموض أن من حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة . وبينما كان فولتير ، وديدرو ود الامبير ، ينحنون للملوك أو الأمبراطورات ، أطلق روسو على الحكومات القائمة صرخة احتجاج قدر لها أن تسمع من اقصى أوربا إلى إقصاها . وبينما إقتصر جماعة الفلاسفة ، الغارقين فى « الحالة الراهنة » على الدعوة لإصلاح تدريجى لشرور معينة ، هاجم جان — جاك النظـــام الاقتصادى ، والاجتماعى ، والسياسى بجملته ، وبشمول بدا معه كل علاج مستحيلا إلا علاج الثورة . ثم أعلن أنها آتية : « محال أن تعمر ممالك أوربا الكبرى أكثر مما عمرت . لقد كان لكل منها فترة مجدها ، ومآلها بعدها إلى الأضمحلال . . . إن الأزمة تقترب ، ونحن على شفا ثورة(٣٢) » . وتنبأ بوقوع تغييرات بعيدة المدى بعد أن تنشب هـــذه الثورة : « ستتطلع إمبراطورية روسيا إلى غزو أوربا ، وستغزى هى نفسها . وسيصبح التتار — رعاياها أو جيرانها — سادتها وسادتنا ، بثورة أراها آتيه لا ريب فيها(٣٣) ».

على أن « العقد الاجتماعى» الذى نرى فى نظرة مؤخرة أنه كان أكثر كتب روسو ثورية ، أثار ضجة أقل كثيراً مما أثارته « هلويز الجديده » . فلقد كانت فرنسا مهيأة للانفراج العاطفى والحب الرومانسى ، ولكنها لم تهيأ لمناقشة الأطاحة بالملكية . وكان هذا الكتاب أكثر ما إنتج روسو إلى ذلك الحين من حجج مدعمة ، ولم يكن تتبعه سهلا كتتبع دعايات فولتير المتألقة . ونحن الذين راعنا مالقى من ذيوع متأخر ، يدهشنا أن نعلم أن شعبيته وتأثيره بدآ بعد الثورة لا قبلها[٣٤]. ومع ذلك نرى دالامبير يكتب لفولتير فى ١٧٦٢ قائلا : « لا جدوى من مهاجمة جان — جاك أو كتابه بصوت عال جداً ، فهـــو أشبه بملك فى السوق (« ليزال »[٣٥] — أى بين العمال الغلاظ فى سوق باريس المركزيه ، و — بالتضمين — بين جماهير الشعب) . ولعل هذا كان غلوا فى القول ، ولكن لنا أن نعتبر عام ١٧٦٢ تاريخا لتحول الفلسفه من مهاجمة المسيحية إلى نقد الدولة .

وقل من الكتب ما أثار مثل هـــذا النقد الكثير . وقد أشر فولتير على نسخه من « العقد الاجتماعى » بردود على الهامش ، فرداً على ما أشار به روسو من إعدام من يذنب بالكفر الأيجابى كتب « كل إكراه فى العقيدة مرذول[٣٦] » . ويذكرنا العلماء بقدم الدعوى بأن السيادة مستقره فى الشعب ، فقد قدم ما رسيليوس البادواوى ، ووليم أوكم ، وحتى اللاهوتيون الكاثوليك أمثال بيللارمين ، وماريانا ، وسواريز ، هذه الدعوى كأنها الضربة خلف ركب الملوك . وقد ظهرت من قبل فى كتابات جورج بوكانان وجروتيوس ، وملتن ، والجرنون سدنى ، ولوك ، وبوفندورف . . . إن « العقد الاجتماعى » شأنه شأن فلسفة روسو السياسية والأخلاقية كلها تقريباً ، هو صدى وأنعكاس لجنيف بقلم مواطن على بعد كاف يتيح له تمجيده دون أن يحس بمخالبها . لقد كان الكتاب مزيجا من جنيف وأسبرطة ، من « قواعد » كلفن و « قوانين » إفلاطون .

وبين عشرات النقاد ذلك التناقض بين النزعه الفردية فى مقالى « روسو وحرفية القانونية فى «العقد الاجتماعى » . لقد رفض فيلمر فى كتابه Patriarcha

(١٦٤٢) قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التى تزعم أن الناس ولدوا متساوين ، فهم فى ميلادهم خاضعون للسلطان الأبوى ولقوانين الجماعة وعاداتها . وروسو نفسه ، بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية ، أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجها إلى النظام — إلى خضوع الفرد للارادة العامة . والتناقضات التى تلحظها فى مؤلفاته هى أساساً بين خلقه وفكره، فلقد كان فرديا متمردا بحكم مزاجه ، وعلته ، وأفتقاره إلى الأنضباط ، وكان بيئيا (لاشيوعياً إطلاقا ، ولا حتى جماعيا) بحكم إدراكه المتأخر لا ستحالة تكوين المجتمع الفعال من الخوارج . وعلينا أن نحسب حساباً للتطور ، فأفكار إنسان ما هى دالة خبرته وعمره ، ومن الطبيعى للمفكر أن يكون فردى النزعة فى شبابه — فيحب الحرية ويبحث عن المثل العليا — وأن يكون معتدلا حين ينضج ، فيحب النظام ويرتضى الممكن . وقد ظل روسو من الناحية العاطفية طفلا طوال حياته ، ينكر العرف ، والمحظورات ، والقوانين ، ولكنه حين فكر تفكيراً منطقيا أدرك أن فى الأمكان بقاء الكثير من الحريات فى نطاق القيود الضرورية للنظام الاجتماعى ، وانتهى إلى أن يدرك أن الحرية فى مجتمع ما ليست ضحية القانون بل ثمرته — وأنها تتسع ولا تضيق بطاعة الجميع لقيود يفرضونها على أنفسهم جماعة . وفى وسع الفوضويين الفلسفيين والشموليين السياسيين جميعاً أن يستشهدوا بروسو تأييداً لدعواهم(٣٧)، وكلا الفريقين لا حق له فى الأستشهاد ، لأنه اعترف بأن النظام أول قوانين الحرية ، والنظام الذى دافع عنه يجب أن يكون التعبير عن الأرادة العامة .

وقد نفى روسو أى تناقضات حقيقية فى فلسفته فقال «كل أفكارى متسعة ، ولكنى لا استطيع عرضها كلها مرة واحدة(٣٨) » . وسلم بأن كتابه « فى حاجه إلى أن يكتب من جديد ، ولكنى لست أملك من العافية ولا الوقت ما يسمح لى بذلك(٣٩) » ، فحين كانت العافية متاحة له سلبه الأضطهاد وقته ، وحين كف الأضطهاد وأتيح له الفراغ ، كانت العافية قد تضاءلت . وفى تلك السنوات الأخيرة بات يتشكك فى حججه ، « أن الذين يفاخرون بأنهم فهموا « العقد الاجتماعى» فهما تاما أذكى منى» . وقد أغفل تماماً ، من الناحية العملية ، المبادىء التى وضعها فيه ، ولم يخطر بباله قط أن

يطبقها حين طلب إليه وضع دستور لبولندة أو كورسيكا . ولو أنه مضى فى خط التغير الذى اتبعه بعد عام ١٧٦٢ لانتهى به المطاف إلى حضن الأرستقراطية ، والكنيسة ، وربما تحت سكين الجيلوتين .

٢ — اميـــل

(أ) تربيتـــه

فى وسعنا أن نغتفر الكثير لكاتب أستطاع فى خمسة عشر شهراً أن يصدر « هلويز الجديدة » (فبراير ١٧٦١) و « العقد الاجتماعى » (إبريل ١٧٦٢)، « واميل » (مايو ١٧٦٢) . وقد نشر ثلاثتها فى أمستردام، ولكن « اميل » نشر فى باريس أيضاً ، بإذن من الحكومة حصل عليه مازيرب العطوف بمخاطرة كبيرة . ومن حق مارك — ميشيل راى ، الناشر الأمستردامى ، علينا أن نحييه تحيه عابرة ، ذلك أنه بعد أن كسب أرباحاً لم يتوقعها من هلويز أوقف على تريز معاشا سنويا مدى الحياة قدره ٣٠٠ جنيه ، وإذ تنبأ لاميل برواج أعظم من « العقد الاجتماعى » (الذى كان قد اشتراه بألف جنيه) دفع لجان — جاك سته الأف جنيه نظير المخطوطة الجديده الأطول من سابقتها .

أما الكتاب فكان بعضه ثمرة مناقشاته مع مدام ديبنيه عن تربية ولدها ، وإتخذ أول شكل له فى مقال صغير كتب — ليسر أماً طيبة قادرة على أن تفكر — وهى مدام دشنونسو ، أبنة مدام دوبان . وقد قصد به روسو أن يكون تذييلا لقصته « هلويز الجديده» : فكيف ينبغى أن ينشأ أبناء جولى ؟ وخامره الشك لحظه فى صلاحية رجل أودع كل إطفاله فى ملجأ للقطاء ، وفشل معلما خاصا فى أسرة مابليه ، للكلام فى موضوع الأبوة والتربية . ولكنه كعادته وجد لذة فى إطلاق حبل خياله على غاربه دون أن يعوقه معوق من التجربة . ودرس مقالات « مونتينى » و « تليماك فنيلون » ، ورسالة فى الدراسات لرولان، وكتاب لوك « خواطر فى التربية ». وكان « مقاله » الأول تحديا له ، لأنه صور الإنسان خيراً بفطرته ولكن أفسدته الحضاره بما فيها التربية . فهل فى الأمكان الاحتفاظ بهذا الخير الفطرى وتنميته بالتربية

الصحيحة ؟ لقد أجاب هلفتيوس قبيل ذلك بأن هذا ممكن ، وذلك فى كتابه « عن العقل » (١٧٥٨) ، ولكنه قدم حجة لا مخطط .

أما روسو فقد استهل كتابه برفض الطرق القائمة لأنها تلقن ، بالصم عادة ، أفكارا بالية فاسدة ، وتحاول جعل الطفل آلة طيعة فى مجتمع منحل ، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه ، وتشوهه فتهبط بمستوى قدراته ، وتلوح بملاحظات تافهة وأقوال قديمة مبتذلة . وقد أخمد هذا التعليم المدرسى كل الحوافز الفطرية ، وجعل ، التربية عذابا يتوق كل طفل إلى تجنبه . ولكن التعليم يجب أن يكون عملية سعيدة فيها تفتح طبيعى ، وتعلم من الطبيعة والتجربة ، وتنمية حرة لقدرات الطفل نحو حياة فيلضة لذيذة . يجب أن تكون « فن تدريب الناس (٤١) » والارشاد الواعى للجسم النامى ليبلغ الصحة ، وللخلق ليبلغ الفضيلة ، وللذهن ليبلغ الذكاء ، وللوجدان ليبلغ ضبط النفس وحب العشرة والسعادة .

وكان روسو يؤثر أن يكون هناك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة ، ولكن بما أن التعليم العام كان يومها فى يد الكنيسة فقد أوصى بتعليم خاص يضطلع به معلم خاص أعزب يتقد أجراً نظير تكريس سنين كثيرة من حياته لتلميذه . وعلى هذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه مخافة أن تصل إليه العدوى من رذائل الحضارة المتراكمة . وأضفى روسو على بحثه صبغة إنسانية بتخيله أنه قد فوض بكامل السلطة تقريبا ليربى غلاماً طيبا جدا يدعى إميل . وهى فكرة لا يمكن تصديقها ، ولكن روسو وفق فى أن يجعل هذه الصفحات — وعددها ٤٥٠ — أمتع كتاب ألف فى التربية اطلاقا . وقد تناول كانط «إميل» ليقرأه فاستغرق فى قراءته استغراقاً أنساه الخروج للتمشى فى نزهته اليومية(٤٢) .

ومادامت الطبيعة ستكون الهادى والمرشد للمعلم ، فسيعطى الطفل كل الحرية التى تسمح بها سلامته . وسيبدأ باقناع مربيته بأن تحرر الرضيع من أقمطته لأنها تعوق نموه وتطور أطرافه تطورا سليما . ثم يقنع أمه بارضاع طفلها بدلا من أن تعهد به لمرضعه ، لأن المرضعة قد تؤذيه بالقسوة أو الاهمال ،

أو قد تظفر منه — بفضل عنايتها الصادقة به — بتلك المحبة التى يجب بالطبيعة أن توجه للأم باعتبارها أول مصدر ورباط لوحدة الأسرة والنظام الأخلاقى . وهنا ساق روسو عبارات كان لها تأثير جدير بالاعجاب على الأمهات الشابات فى الجيل الجديد :

« أتريدون أن تردوا الناس جميعاً إلى واجباتهم الفطرية ؟ إبدأوا بالأم إذن ، وسوف تدهشكم النتائج . فكل الشرور تأتى فى أعقاب هذه الخطيئة الأولى ... والأم التى يغيب أطفالها عن بصرها لاتكتسب الاحترام الكثير ، فليس هنا حياة أسرية ، وروابط الطبقة لاتتقوى بروابط العادة ، وليس هناك وجود بعد للآباء والأمهات والأخوة والأخوات . فهم أغراب تقريباً ، فكيف يحب بعضهم بعضا ؟ ان كلا منهم يفكر فى نفسه .

« أما إذا تنازلت الأمهات بإرضاع أطفالهن ، فسيكون هناك اصلاح فى الخلق سينتعش الشعور الفطرى فى كل قلب ، ولن تشكو الدولة فقرا فى عدد المواطنين . وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعيد المحبة المتبادلة ومباهج البيت خير ترياق للرذيلة . عندها يغدو لعب الأطفال الصاخب متعة بعد أن كنا نحسبه شديد الارهاق لنا ، ويزداد اعزاز الأم والأب بعضهما لبعض ويقوى رباط الزواج . . . وهكذا يأتى الشفاء من هذا الشر الواحد باصلاح شامل ، فتستعيد الطبيعة حقوقها . وإذا أصبحت النساء أمهات صالحات أصبح الرجال أزواجاً وأباء صالحين(٤٣) .

هذه الفقرات المأثورة جعلت إرضاع الأمهات لأطفالهن شطرا من تغير العادات الذى بدأ فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر . وكان بوفون قد أذاع مثل هذا النداء فى العقد السابق ولكنه لم يصل إلى نساء فرنسا . وبدأ الآن ظهور أجمل الصدور فى باريس أعضاء للأمومة فضلا عن كونها مفاتن جنسية ساحرة .

وقسم روسو حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث ، فترات إثنى عشرة سنة طفولة ، وثمانى سنوات صبى ، وعمر غير محدود للإعداد للزواج والأبوة ، وللحياة

الاقتصادية والاجتماعية . ففى الفترة الأولى يكون التعليم كله تقريباً بدنيا وخلقيا ، وعلى الكتب والتعلم من الكتب ، وحتى الديانة أن تنتظر نمو العقل، فإلى أن يبلغ اميل الثانية عشرة لن يعرف كلمة فى التاريخ ، ولايكاد يسمع ذكر الله (٤٤) . فتربية الجسم يجب أن يشرع فيها أولا . ومن ثم يربى إميل فى الريف لأنه المكان الوحيد الذى يمكن أن تكون الحياة فيه صحية طبيعته :

لم يخلق البشر ليتكدسوا فى كثبان نمل، بل لينتشروا على الأرض ليفلحوها ، وكلما حشدوا معاً فسدوا . والمرض والرذيلة هما النيجتان المحتومتان للمدن المكتظة . . فأنفاس الإنسان تفتك باخوانه البشر . . . والإنسان تفترسه مدننا ، ولن تنقضى اجيال قليلة حتى ينقرض النوع الإنسانى أو ينحط ، فهو فى حاجة إلى التجديد ، وتجديده يكون دائماً من الريف . فأرسلوا أطفالكم إلى الخلاء ليجدوا أنفسهم . ارسلوهم ليستعيدوا فى الحقل المكشوف تلك العافية التى فقدوها فى الهواء الفاسد الذى يملأ مدننا المزدحمة(٤٥) .

شجعوا الصبى على حب الطبيعة والخلاء ، وعلى تربية عادات البساطة وعلى العيش على الأطعمة الطبيعية . وأى طعام ألذ من ذلك الذى زرعه المرء فى حديقته ؟ أن الغذاء النباتى أصح الأغذية ومن شأنه أن يقلل كثيراً من الأمراض والعلل (٤٦) .

ان عدم اكتراث الأطفال باللحم من الأدلة على أن الميل لأكل اللحم غير طبيعى . وهم يؤثرون الأطعمة النباتية واللبن والفاكهة الخ . . فحذار أن تغيروا هذا الميل الفطرى وتجعلوا أطفالكم أكلة للحوم . افعلوا هذا من أجل أخلاقهم أن لم تفعلوه من أجل صحتهم ، إذ كيف نعلل ان كبار أكلة اللحوم هم فى العادة أشد ضراوة وقسوة من غيرهم من البشر (٤٧) .

وبعد الغذاء الصحيح ، والعادات الطيبة يعلم إميل البكور فى الاستيقاظ . «رأينا الشمس تشرق فى منتصف الصيف وسنراها تشرق فى عيد الميلاد ..

لستا تؤومى الضحى ، فنحن نلتذ بالبرد[٤٨] . وإميل يكثر من الاستحمام وكلما اشتد عوده قلل من حرارة الماء إلى أن يستحم أخيرا بالماء البارد، بل المثلج ، صيف شتاء . وتفاديا للخطر يكون هذا التغيير بطيئا ، تدريجيا ، غير محسوس[٤٩] . ونادراً ما يلبس على رأسه أى غطاء ، وهو يمشى حافياً طوال السنة إلا إذا خرج من بيته وحديقته . « يجب أن يعود الأطفال على البرد لا على الحر ، فالبرد الشديد لا يضرهم إطلاقا إذا تعرضوا له فى بواكير حياتهم[٥٠] » . وشجعوا محبة الطفل الطبيعية للانشاط والحركة « فلا تتركوه على السكون إن أراد الجرى ، ولا على الجرى أن إراد القعود . . . فليجر ، وليقفز ، وليزعق ما شاء[٥١] » . وأبعدوا عنه الأطباء ما أستطعتم[٥٢] . ودعوه يتعلم بالممارسة لا بالكتب ولا حتى بالتعليم ، دعوه يصنع الأشياء بنفسه ، وأكتفوا باعطائه المواد والأدوات . والمعلم الذكى يرتب المسائل والواجبات ، ويدع تلميذه يتعلم من ضربة تصيب إبهامة أو صدمة تصيب قدمه ، وهو يحميه من الأذى البالغ لا من الآلام التى تربيه .

إن الطبيعة خير هاد ، ويجب أن تتبع فى أمر الأذى الذى نعرفه فى هذه الحياة :

« فلتكن قاعدتنا التى لانزاع عليها أن الدوافع الأولى للطبيعة صواب دائما . ليس فى القلب البشرى خطيئة أصليه . . فلا تعاقب تلميذك أبدا ، لأنه لا يعرف معنى الخطأ . ولا تجعله يقول « سامحنى » . . . فهو فى أفعاله التى لاصبغة أخلاقية لها كلها لا يمكن أن يأتى خطأ من الناحية الأخلاقية ، ولايستحق عقابا ولا تقريعا . . . فابدأ بترك بذرة شخصيته حرة فى الإفصاح عن نفسها ، ولا تقسره على شىء ، وبهذا يتكشف لك على حقيقته[٥٣] » .

على أنه سيحتاج إلى التربية الخلقية ، فبغيرها يصبح إنسانا خطرا تعساً . ولكن لا تعظه . فإن أردت لتلميذك أن يتعلم العدل والرحمة كن أنت عادلا رحيما فيقلدك . « القدوة القدوة ! فبدونها لن تنجح فى تعليم أى شىء للأطفال[٥٤] » . وهنا أيضاً قد نجد أساساً طبيعيا . فالخير والشر (من وجهة نظر المجتمع) كلاهما فطرى فى الإنسان ، وعلى التربية أن تشجع الخير

وتثبط الشر . ومحبة الذات عامة ، ولكن فى الأمكان تعديلها حتى لتدفع الإنسان إلى إقتحام الأخطار الداهمة حفاظا على أسرته، أو وطنه ، أو عرضه. فهناك غرائز اجتماعية تحفظ الأسرة والجماعة كما أن هناك غرائز أنانية تحفظ الفرد(٥٥) . والرحمة قد تنبع من محبة الذات (كما يحدث حين نحب الأبوين اللذين يغذواننا ويحمياننا) ، ولكنها قد تؤتى ثمارا شتى من السلوك الاجتماعى والمعونة المتبادلة . ومن ثم فإن نوعاً من الضمير يبدو أنه عام وغريزى .

« ألق ببصرك إلى كل أمة فى الأرض ، واقرأ كل سفر من أسفار تاريخها ، ففى جميع ألوان العبادة العجيبة القاسية هذه ، وفى هذا التنوع المذهل من العادات والتقاليد ، ستجد فى كل مكان نفس الأفكار (الأساسية) أفكار الخير والشر . . . ففى إعماق قلوبنا مبدأ فطرى للعدل والفضيلة نحكم بمقتضاه — رغم قواعدنا — على إفعالنا ، أو أفعال غيرنا ، أخير هى أم شر ، وهذا المبدأ هو الذى نسميه الضمير(٥٦) » .

ومن ثم ينطاق روسو فى مناجاة سنجدها تتردد حرفياً تقريباً فى كانط :

« إيه أيها الضمير ! أيها الضمير ! أيها الفطرة المقدسة ، والصوت الخالد الآتى من السماء ، الهادى الأمين لإنسان هو جاهل محدود حقاً ، ولكنه ذكى حر ؛ أيها القاضى المعصوم والفيصل بين الخير والشر ، الذى يجعل الإنسان شبيها بالله ، فيك يكمن سمو طبيعة الإنسان وفضيلة أفعاله ، لست أجد فى نفسى إذا انفصلت عنك شيئاً يرفعنى فوق البهائم — لا شىء إلا إمتياز مؤسف — هو قدرته على أن يهيم من خطأ إلى خطأ بمعونة ذكاء طايق من كل قيد وعقل لا يعرف له مبدأ(٥٧) » .

إذن فالتربية العقليه يجب إلا تبدأ إلا بعد تكوين الخلق الفاضل . ويسخر روسو من نصيحة لوك بمناقشة الأطفال منطقياً :

« أن الأطفال الذين كانوا يناقشون عقليا باستمرار يبدون لى غاية فى البلاهة . فالعقل هو آخر ما ينمو من قدرات الإنسان وأسماها — وأنت تريد أن تستخدمه لتدريب الطفل المبكر ؟ وجعل الإنسان منطقيا هو الحجر الأعلى

فى التربية الحسنة ، ومع ذلك تريد أن تربى الطفل عن طريق عقله . إنك إذن تبدأ من الطرف الخطأ[٥٨] » .

كلا ، بل يجب أن تؤجل التربية العقليه . « أبق ذهن الطفل (فكره) عاطلا أطول ما تستطيع[٥٩] »، فإذا كانت له آراء قبل أن يبلغ الثانية عشرة فثق أنها ستكون سخيفة . ولا تزعجه فى هـــذه السن بالعلم ، فهذا سباق لأنهاية له ، كل ما نكتشفه فيه إنما يزيدنا جهلا وغرورا أحمق[٦٠]». فدع تلميذك يتعلم حياة الطبيعة وأساليبها بالتجربة ، دعه يستمتع بالنجوم دون الزعم بأنه يتتبع تاريخها .

ويمكن أن تبدأ التربية العقليه فى الثانية عشرة ، ويجوز لإميل أن يقرأ بعض الكتب . ويستطيع أن ينتقل من الطبيعة إلى الأدب بقراءة روينصن كروزو ، لأنها قصة رجل جاز — على جزيرة — بمختلف المراحل التى جاز بها الناس من الهمجيه إلى المدنية . ولكن إميل لا يكون قد قرأ كتبا كثيرة حين يبلغ الثانية عشرة ، وسيضرب صفحا عن الصالونات والفلاسفة ، ولن يكترث للفنون ، لأن الجمال الحـــق الوحيد كائن فى الطبيعة[٦١] : ولن يصبح أبدا « موسيقيا ، أو ممثلا ، أو مؤلفا[٦٢]» ، بل سيكون قد اكتسب مهارة كافية فى حرفة ما ليكسب قوته بعمل يديه أن اقتضته الظروف يوماً ما (وبعد ثلاثين عاماً سيندم الكثير من المهاجرين الذين لا حرفة لهم على أنهم سخروا كما سخر فولتير من النجار النبيل)[٦٣] . على أية حال يجب أن يخدم إميل المجتمع بيده أو بعقله (رغم أنه وارث لثروة متواضعة) ، « فالرجل الذى يأكل وهو عاطل ما لم يكسبه بجهده ليس إلا لصا[٦٤] ».

(ب) ديانتـــه

واخيراً نستطيع أن نحدث إميل عن الله إذا بلغ الثامنه عشرة :

« إنى علم أن الكثير من قرائى سيد هشهم أن يجدونى متتبعا سير تلميذى خلال سنيه الأولى دون أن أحدثه فى الدين . إنه وهو فى الخامسة عشرة لن يعرف حتى أن له نفسا ، وقد لا يكون فى الثامنة عشرة مهيأ بعد للإلمام

بهذه الحقيقة . . . . ولو كان على أن أصور الغباوة فى أفجع أشكالها لصورت معلما متحذلقا يلقن التعليم الدينى للأطفال ، ولو أردت أن أخرج طفل عن طوره لطلبت إليه أن يشرح ما تعلمه فى دروسه الدينية . . . لاشك أننا يجب ألا نضيع لحظة واحدة إن وجب أن نكون مستحقين للخلاص الأبدى ، ولكن إذا كان تكرار الفاظ معينه يكفى للحصول على هذا الخلاص فلست أرى لم لا نملاء السماء بالزرازير والعقاعق كما نملؤها بالأطفال[٦٥] » .

ثم جرد روسو أمضى سهامه على جماعة الفلاسفة ، رغم إعلانه هذا الذى أثار غضب رئيس أساقفة باريس . وليتصور القارىء فولتير أو ديدرو يقرءان هذا الكلام :

« لقد استشرت جماعة الفلاسفة ، فوجدتهم كلهم سواء فى الغرور ، والجزم ، والدجماطية ، يتظاهرون — حتى فى شكوكيتهم المزعومة — بأنهم عليمون بكل شىء ، لا يثبتون شيئا ، ويهزأ بعضهم ببعض . وقد بدت لى . . . هذه الخاصة الأخيرة ، النقطة الوحيدة التى أصابوا فيها . فهم ضعاف فى الدفاع رغم تبجحهم فى الهجوم. زن حججهم تجدها كلها مدمرة ، وأحص أصواتهم تجد كلا منهم يتحدث عن نفسه وحده . . . . وما من واحد فيهم — إن تصادف واكتشف الفرق بين الباطل والحق — لا يؤثر باطله على الحق الذى اكتشفه غيره من قبله . فأين الفيلسوف الذى يعف عن خداع الدنيا بأسرها فى سبيل مجده[٦٦] » .

ومع أن روسو واصل تنديده بالتعصب ، فإنه على نقيض بيل أدان الكفر لأنه أشد خطرا من التعصب . وقدم لقراءه « إعلانا بالإيمان » رجا به أن يحول التيار من إلحاد دولباخ ، وهلفتيوس ، وديدرو ، عوداً إلى الإيمان بالله ، وحرية الإرادة ، والخلود. وقد تذكر الرئيسين الدينيين — جيم وجاتييه — اللذين التقى بهما فى صباه ، فمزج بينهما وأخرج من المزيج كاهنا وهميا فى سافوى ، وأنطق هذا الكاهن الريفى بالمشاعر والحجج التى بررت (فى نظر روسو) العودة إلى الدين .

ويصور روبسو كاهن سافوى قسيساً على أبرشية صغيره فى الألب الايطاليه . وهو يعترف سرا بشىء من الشكوكية ، ويرتاب فى الوحى الإلهى للأنبياء ، وفى معجزات الرسل والقديسين ، وفى صحة الأناجيل(٦٧) ؛ ثم يتساءل كما تساءل هيوم « من يجرؤ على أن يخبرنى كم شاهد عيان يقتضيهم إقناعنا بتصديق معجزة ما ؟ (٦٨) » وهو يرفض صلاة التضرع ، فصلواتنا يجب أن تكون ترانيم لمجد الله ، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته(٦٩) . وهو يرى الكثير من مواد العقيده الكاثوليكية حديث خرافة أو اساطير الأولين(٧٠) . ومع ذلك يشعر بأنه يحسن خدمة شعبه بكتمان شكوكه ، وممارسة العطف على الجميع والبر بهم (مؤمنين وغير مؤمنين على السواء) . وأداء طقوس الكنيسة الرومانية كلها بأمانة . فالفضيلة ضرورية للسعادة ، والإيمان بالله ، وبحرية الإرادة ، وبالجنه ، وبالنار ، ضرورى للفضيله ، والأديان رغم ما قارفت من جرائم جعلت الرجال والنساء أكثر فضيلة ، أو على الأقل أقل قسوة ولؤما مما كان يمكن أن يكونوا . فإذا بشرت هذه الاديان بعقائد تبدو لنا غير معقولة ، أو إذا ارهقتنا بطقوسها ومراسمها ، وجب أن نسكت شكوكنا فى سبيل الجماعة .

والدين صواب فى جوهره حتى من وجهة نظر الفلسفة . ويستهل الكاهن الكتاب كديكارت بقوله « إننى موجود ولى حواس أتلقى من خلالها الانطباعات ، هذه أولى الحقائق التى تسترعى انتباهى ، وأنا مضطر إلى قبولها(٧١) » . وهو يرفض رأى باركلى : « إن سبب أحاسيسى خارج عنى ، لأنها تؤثر فى سواء كان عندى داع لها أولم يكن ، وهى تخلق وتهدم مستقلة عنى . . إذن توجد كيانات أخرى فضلا عنى » . ونقطة ثالثة ترد على هيوم وتسبق كانط : انى أجد لدى القدرة على المقارنة بين أحاسيسى ، إذن فقد وهبت قوة ايجابية للتعامل مع التجربة(٧٢) . وهذا العقل لا يمكن تفسيره على أنه شكل من أشكال المادة ، فليس فى فعل التفكير أمارة على عملية مادية أو ميكانيكية . أما كيف يستطيع عقل غير مادى أن يؤثر فى جسم مادى فذلك أمر يجاوز فهمنا ، ولكنه حقيقة تدرك للتو ، ويجب ألا ننكرها لأجل الاستدلال

المجرد . وعلى الفلاسفة أن يتعلموا الاعتراف بأن شيئا ما قد يكون حقيقياً ولو عجزوا عن فهمه — خصوصاً إذا كان يدرك بأسرع من جميع الحقائق .

والخطوة التالية (كما يسلم الكاهن) هى الاستدلال العقلى الخالص ؛ فأنا لاأدرك الله بحسى ، ولكن استدل عقلا على أنه كما أن فى أفعالى الارادية عقلا هو السبب المدرك للحركة ، كذلك هناك على الأرجح عقل كونى وراء تحركات الكون . إن الله لايمكن معرفته ، ولكنى أشعر أنه تعالى موجود وفى كل مكان . وأبصر قصداً فى مئات الحالات ، من تكوين عينى إلى حركات النجوم ، وينبغى ألا أفكر فى أن أنسب إلى الصدفة (مهما ازداد تكاثرها « على طريقة ديدرو ») تكييف الوسائل وفق الغايات فى الكائنات الحية ونظام العالم ، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف تجميعاً لذيذا فى طبع الانيادة(٧٣) .

فاذا كان هناك إله ذكى وراء عجائب الكون ، فمحال أنه سيسمح بأن يهزم الحق هزيمة دائمة . ولابد لى من الإيمان بإله خير يؤكد انتصار الخير ، ولو لأتحاشى ذلك الإيمان الكئيب بانتصار الشر . إذن يجب أن أومن بحياة آخرة ، بجنة تجزى فيها الفضيلة . ومع أن فكرة الجحيم تقززنى ، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم فى قلوبهم ، فانى متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة فى الإنسان . وفى تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل آلام الجحيم خالدة(٧٤) . ومن ثم كانت فكرة المطهر باعتباره مكاناً للعقوبة الممكن اختزالها للخطاة جميعاً إلا أشدهم عناداً وعصياناً أكثر انسانية من تقسيم الموتى كلهم إلى فريق المباركين إلى الأبد ، والهالكين إلى الأبد . وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة ، فيالها من قسوة أن ننتزع من الناس هذا الرجاء الذى يعزيهم فى أحزانهم ويشدد عزائمهم فى هزائمهم(٧٥) . ولو انعدم الايمان بالله وبالآخرة ؛ لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها ، لأن الحياة فى الفلسفة الملحدة صدفة آليه تمر بمئات الآلام إلى موت أليم أبدى .

وعليه وجب أن نتقبل الدين على أنه فى مجموعه عطية كبرى للبشر ولاحاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبيرة على شتى المذاهب التى مزقت المسيحية ، فكلها خـــير إذا حسنت السلوك وغـــذت الرجاء . ومن السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والآلهة والأسفار المقدسة الأخرى سوف يحكم عليهم بالهلاك، « فلولم يكن على الأرض سوى دين واحد ؛ ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدى . . لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأقساهم(٧٦). وعليه فلن يعلم إميل لوتا بعينه من المسيحية، ولكنا سنعطيه الوسيلة لأن يختار لنفسه حسبما يرتئيه عقله صوابا(٧٧) . وخير الطرق أن نمضى فى الدين الذى ورثناه عن آبائنا أو مجتمعنا . ونصيحة كاهن روسو الوهمى له هى « عد إلى وطنك ؛ وارجع إلى دين آبائك ، واتبعه بكل قلبك ولا تتخل عنه أبدا فهو بسيط جداً ومقدس جدا ، وما من دين آخر تجد فيه الفضيلة أشد نقاء ، ولا العقيدة أكثر اشباعا للعقل(٧٨) . »

وكان روسو عام ١٧٥٤ قد سبق إلى هذه النصيحة ، وعاد الى جنيف وعقيدتها ، على أنه لم يف بوعد الذهاب اليها والإقامة فيها بعد أن يسوى أموره فى فرنسا . وفى «رسائل من الجبل» التى كتبها بعد عشر سنوات تنكر لمعظم دين آبائه كما سنرى . وفى العقد الأخير من حياته سنجده يوصى غيره بالدين ، ولكنه لايكاد يبدى أمارة على الإيمان الدينى أو الممارسة الدينية فى حياته اليومية . واجمع الكاثوليك والكلفنيون واليسوعيون على مهاجمته هو «واعلان الإيمان» الذى ناب عن عقيدته لأنهما أساسا غير مسيحيين(٧٩). وصدم التعليم الذى اقترحه لإميل قراءه المسيحيين لأنهم رأوه فى حقيقته تعليما لادينيا ، وخامرهم الظن فى أن فتى من أواسط الشباب ، نشىء على غير دين ، لن يعتنق دينا بعد حين ، إلا لداعى المصلحة الاجتماعية . وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الأصلية والدور الفدائى الذى يؤديه موت المسيح وذلك برغم قبوله الرسمى للكلفنية . وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله ، وذهب إلى أن العهد الجديد «يحفل بأشياء لايمكن تصديقها ، أشياء ينفر منها العقل(٨٠)» . ولكنه أحب الأناجيل لأنها أعظم الأسفار تأثيرا وإلهاما للنفس .

أيمكن أن يكون كتاب اجتمع له كل هذا الجلال والبساطة فى وقت معاً من عمل إنسان ؟ أيمكن أن يكون ذلك الذى احتوى تاريخه فيها مجرد انسان ؟ . . . أى رقة وطهر فى أفعاله ، وأى نعمة تمس القلوب فى تعاليمه ، وما اسمى أقواله ، وما أعمق حكمة مواعظه ، وما أعظم إجاباته سدادا وتمييزا وأى إنسان ، وأى حكيم يستطيع أن يحيا ويتألم ويموت دون ضعف أو تباه ؟ . . . إذا كانت حياة سقراط وموته هما حياة فيلسوف وموته ، فحياة المسيح وموته هما حياة إله وموته[٨١] .

ج — حبه وزواجه

حين اختتم روسو صفحات كاهن سافوا الخمسين وعاد إلى إميل تصدى لمشاكل الجنس والزواج .

فهل يحدث تلميذه عن الجنس ؟ لاتفعل حتى يسألك . فإذا سألك فاخبره بالحقيقة[٨٢]. ولكن افعل كل ما يتفق والصدق والصحة لكى تؤجل وعيه بالجنس . على أى حال لاتنبه هذا الوعى : « إذا اقتربت السن الحرجة فقدم للشباب من المشاهد ما هو كفيل بالحد من رغباتهم الجنسية لا بإثارتها . . . أبعدهم عن المدن الكبيرة حيث يعجل لباس النساء اللاتى يعرضنه فى زهو وتباه ، وتعجل جرأتهن دوافع الطبيعة وتستبقها ، وحيث يعرض كل شىء على أبصارهم ، للدات يجب ألا يعرفوا عنها شيئاً حتى يبلغوا من العمر ما يمكنهم من أن يختاروا بأنفسهم . . . وإذا أبقاهم ميلهم للفنون فى المدينة فابعدهم عن . . . حياة التبطل الخطرة . واختر بعناية عشراءهم ، وشواغلهم وملاهيهم ، ولاترهم شيئاً غير الصور المحتشمه المثيرة للشفقة . . . وغير حسهم المرهف دون أن تثير حواسهم[٨٣] . »

وأقلقت روسو العواقب الوخيمة لعادة يبدو أنه عرفها معرفة خبير :

« حذار أن تترك الفتى ليلا ولا نهارا ، وعليك على الأقل أن تقاسمه حجرته . وإياك أن تسمح له بالذهاب إلى فراشه حتى يأخذ الكرى بجفونه ، ثم اجعله ينهض بمجرد استيقاظه . . . فلو أنه اعتاد هذه العادة الخطرة

لملك . فسيتنبه جسمه ونفسه من تلك اللحظة فصاعدا، وسيحمل إلى الغير آثار . . . أضر عاذة يكتسبها شاب » .

ثم يضع هذا القانون لتلميذه .

« إن عجزت عن التحكم فى شهواتك ياعزيزى إميل فإنى أرثى لك ، ولكنى لن أتردد لحظة ، فلن أسمح بالروغان من مقاصد الطبيعة . وإذا كان حتما عليك أن تكون عبداً فإنى أوثر أن أسلمك إلى طاغية قد أنقذك منه ، فمهما حدث ، فإنى قادر على تحريرك من العبودية للنساء بسهولة أكثر من عبوديتك لنفسك(٨٤)».

ولكن لا تدع رفاقك يغرونك بالذهاب إلى ما خور ! « فلم يريد هؤلاء الفتيان أغراءك ؟ لأنهم يرغبون فى إفسادك . . . فحافزهم الوحيد هـــو غل دفين لأنهم يرونك خيراً منهم ، فهم يريدون أن يجروك إلى الهوة التى تردوا فيها » .

والزواج خير من هذا . ولكن ممن ؟ يصف المعلم المثل الأعلى للفتاة ، والمرأه ، والزوجة ، ويحاول أن يطبع ذلك المثل على ذهن إميل هاديا له وهدفا فى البحث عن زوجة . وكان روسو يخاف النساء المسترجلات ، المسيطرات ، الوقحات ، ويرى سقوط الحضاره فى تسلط النساء المسترجلات استرجالا متزايداً على الرجال المخنثين تخنثا متزايدا «فى كل بلد تجد أن الرجال من النوع الذى تصنعة النساء . . . . فردوا النساء إلى الأنوثه ، نعد رجالا مرة أخرى(٨٥) » أن نساء باريس يغتصبن حقوق جنس دون أن يردن التخلى عن حقوق الآخر ، وهن لذلك لا يملكن هذه ولا تلك مكتمله(٨٦) » . والقوم يتصرفون بطريقه أفضل فى الأقطار البروتستنتية حيث الحشمة ليست أضحوكة بين المسفسطين بل وعدا يبشر بأمومة أمينة(٨٧) . أن مكان المرأة فى البيت ، كما كانت الحال عند قدماء اليونان ، ويجب أن تقبل زوجها سيدا ولكن يجب أن تكون صاحبة الكلمة العليا فى البيت(٨٨) . وبهذه الطريقة تصان صحة النوع .

ويجب أن تهدف تربية الفتيات إلى أخراج أمثال هؤلاء النساء . يجب أن يربين فى البيت على أيدى أمهاتهن ، وأن يتعلمن كل فنون البيت ، من الطهوالى التطريز ، وأن يحصلن الكثير من الدين ، بأسرع ما يمكن ، لأن من شأن هذا أن يعينهن على الحشمة ، والعفة ، والطاعة . وعلى البنت أن تقبل دين أمها دون جدل ، ولكن على الزوجة أن ترتضى دين زوجها(٨٩) على أية حال لتتجنب الفلسفة وتحتقر حياة الصالونات(٩٠) . على أنه يجب إلا تكره الفتاة على الإحجام الغبى ، فينبغى أن تكون خفيفة الروح ، مرحة ، تواقة ، وأن تغنى وترقص كما تشتهى ، وتستمتع بكل لذات الشباب البريئة ، ولتذهب إلى المراقص والألعاب الرياضية ، وحتى إلى المسارح — تحت الملاحظة الواجبة وفى صحبة طيبة(٩١) .ويجب العمل على أن يظل ذهنها نشيطا يقظا إن أريد بها أن تكون زوجة صالحة لرجل مفكر « ولابأس بأن يسمح لها بقدر من التدلل » باعتبار هذا جزءا من اللعبة المعقدة التى تختبر بها خطابها وتختار زوجها(٩٢) . ان الرجل هو موضوع الدرسة الصحيحة لجنس النساء(٩٣) .

فإذا ثبت هذا المثل الأعلى للفتاة والمرأة فى آمال إميل جاز له أن يخرج ويبحث عن زوجته . وهو الذى يختار ، لاأبواه ولامعلمه . ولكن من واجبه نحوهم ونحو خطبهم عليه سنين طوالا ، أن يستشيرهم فى احترام . أتريد أن تذهب إلى المدينة وتتطلع إلى الفتيات اللاتى يعرضن هناك ؟ حسنا جداً ، سنذهب إلى باريس وسترى بنفسك حقيقة هؤلاء الأوانس المثيرات . وهكذا يعيش إميل برهة فى باريس ويختلط بـ« المجتمع الراقى » . ولكنه لايجد فيه فتاة من النوع الذى وصفه له معلمه الماكر « إذن وداعاً ياباريس الذائعة الصيت ، بكل ما فيك من ضجيج ودخان وقذارة ، حيث كفت النساء عن الإيمان بالشرف ، والرجال عن الإيمان بالفضيلة ، إننا نبحث عن الحب والسعادة والبراءة ، وكلما بعدنا عن باريس كان خيرا لنا(٩٤) .

وعليه يقفل المعلم وتلميذه إلى الريف ، وإذا هما يصادفان صوفى فى قرية هادئة نائية عن الزحام المجنون . هنا (الكتاب الخامس) تتحول

رسالة روسو إلى قصة حب مثالية التصوير ولكنها مبهجة ، تروى ببراعة كاتب قدير . فبعد تلك الأحاديث المسهبة فى التعليم والسياسة والدين ، يعود إلى الشاعرية والخيال ، وبينما تنكب تريز على أشغال بيتها ، يعاود أحلامه بتلك المرأة الرقيقة التى لم يجدها إلا فى لحظات متفرقة من جولاته ، ويطلق عليها اسما اشتقه من آخر غرام اشتعل فى قلبه .

وصوفى الجديدة هذه ابنة سيد كان يوما ما ثريا ، يعيش الآن فى عزلة وبساطة قانعتين . فتاة صحيحة الجسم ، جميلة ، محتشمة ، رقيقه — ونافعة وتعين أمها بكفايتها السريعة الهادئة فى كل شىء « ما من شىء لاتستطيع عمله بأبرتها [٩٥] » . ويجد إميل المبرر لمعاودة لقائها ، وتجد هى المبرر لمزيد من زياراته . وشيئاً فشيئاً يتضح له أن صوفى حائزة لكل الفضائل التى صورها له معلمه فى صورة مثالية . فيا للصدفة الإلهية ! وبعد أسابيع يصل إلى القمة التى تدير رأسه ، قمة لثم هدب ثوبها . وما هى إلا أسابيع أخر حتى يخطبها . ويصر روسو على أن تكون الخطبة احتفالا رسمياً مهيبا فيجب أن تتخذ كل التدابير — بالطقوس وسواها — للتسامى بقدسية رباط الزوجية وإقرارها فى الذاكرة ، وبينما يرتعش إميل وهو على حافة النعيم ، يحمله معلمه العجيب الذى يضرب بالحرية والطبيعة عرض الحائط على ترك خطيبته والغياب عنها عامين والسفر إمتحاناً لمحبتهما ووفائهما . ويبكى إميل ويصدع للأمر « فإذا عاد وهو محتفظ بعذريته كأنما بمعجزة وجد صوفى عفيفة فى وفاء ، فيتزوجان ، ويرشدهما المعلم إلى واجبات الواحد نحو صاحبه ؛ فيطلب إلى صوفى أن تطيع زوجها إلا فيما يتصل بالفراش والمأكل « ستهيمن عليه طويلا بالحب إذا جعلت وصلك له نادرا غالياً . . . وليكرم إميل عفة زوجته دون أن يشكو من برود عاطفتها [٩٦] . ويختتم الكتاب بنصر ثلاثى :

« ذات صباح » يدخل إميل حجرتى ويعانقنى قائلا : « هنىء ابنك يا أستاذى فهو يأمل أن يحظى بعد قليل بشرف الأبوة . ما أعظم المسئولية التى ستحملها ، وما أشد حاجتنا إليك ! ولكن معاذ الله أن أدعك تربى

المولد كما ربيت الولد ، معاذا الله أن يقوم إنسان غيرى بهذه المهمة اللذيذة المقدسة . . ؛ ولكن واصل مهمة تعليم المعلمين الشابين . أبذل لنا النصح وأشرف علينا . وسيسلس قيادنا لك وسأحتاج إليك ما حييت . . . . لقد أديت واجبك فعلمتنى كيف اقتدى بك ، بينما تستمتع أنت بالفراغ الذى تستحقه جزاء جهودك[٩٧] » .

لقد اتفق العالم عموما بعد قرنين من الثناء ، والسخرية ، والتجربة على أن « اميل » كتاب جميل موح ، ومستحيل . فالتربية موضوع ثقيل ، لأننا نتذكرها فى ألم ، ولانحب أن نسمع المزيد عنها ، ونكره أن تفرض علينا من جديد بعد أن أتممنا مدة الخدمة التى فرضت علينا فى المدرسة . ومع ذلك فقد صنع روسو من هذا الموضوع المنفر رواية تسحر قارئها . فالأسلوب البسيط ، المباشر الشخصى يأسرنا برغم ما شابه من تمجيد بليغ ، ونحن ننساق للرواية ونسلم أنفسنا لذلك المعلم الكلى العلم ، وأن ترددنا فى إسلام أبنائنا له . ذلك أن روسو ، بعد أن امتدح حدب الأم وحياة الأسرة ، يأخذ إميل من أبويه وينشئه فى عزلة مضادة للفساد عن المجتمع الذى لابد له من العيش فيه بعد حين . وروسو لم يرب أطفالا قط ، لذلك لايعلم أن الطفل المتوسط هو بـ « الطبيعة » لص صغير ، غيور ، جشع ، مسيطر ، ولوانتظرنا حتى يتعلم الانضباط دون أوامر ، والاجتهاد دون تعليم ، لشب إنساناً سيء التكيف ، بليداً قليل الحيلة ، فوضوياً ، قذر الجسم أشعث الشعر ، لايطاق . وأنى لنا هؤلاء المعلمون الخصوصيون الراغبون فى تكريس عشرين عاما من حياتهم لتربية طفل واحد ؟ تقول مدام دستال (١٨١٠) أن هذا الضرب من العناية والاهتمام . . . يضطر كل رجل إلى تكريس حياته كلها لتربية مخلوق آخر ، ولا تتاح الحرية فى النهاية إلا للاجداد ليهتموا بمضاجعهم[٩٨] .

وأكبر الظن أن روسو أدرك هذه الصعوبات وغيرها بعد أن أفاق من نشوة تأليف كتابه . فقد جاءه فى ستراسبورج عام ١٧٦٥ أحد المتحمسين له وهو يتدفق ثناء وقال له « سيدى انك ترى رجلا ينشىء أبناءه على المبادىء التى أسعده أن يتعلمها من كتابك اميل » . وقال روسو

غاضبا » هذا أسوأ لك ولأبنك[٩٩] . وفى الرسالة الخامسة من « رسائل من الجيل » بين أنه لم يؤلف إميل للآباء العاديين بل للحكماء « لقد أوضحت فى المقدمة أن اهتمامى كان بتقدم خطة نظام جديد للتربية لينظر فيه الحكماء ، لا طريقة يستخدمها الآباء والأمهات[١٠٠] » . فهو كمعلمه افلاطون انتزع الطفل من أذى أبويه مؤملا أن يصبح صالحاً لتربية اطفاله بعد ان اكتملت له التربية المنقذة . وكأفلاطون « ذخر فى السماء أنموذجا لحالة أو طريقة مثالية ، حتى « يشهدها كل راغب ، فإذا شهدها استطاع أن يوجه نفسه وفقها[١٠١] » . وقد اذاع على الناس حلمه هذا ، عسى أن يحمل الإلهام فى بلد ما ، لبعض الرجال والنساء ، ويعين على صلاح الحال . ولقد فعل .

* * *